



القلوب جوارح ثمينة القدر، عميقه الأثر، معجزة التركيب، فمنذ وطئها متن الحياة تستقبل رسائل سرمدية، تبقى، تستمر، تتغول، تستقبل جدواً منظماً من الآثار الفطرية النقية التي تنطبع في خلجان الصدور، على هيئة نقوش تجتمع وت تكون وتكبر وتشكل، حتى إذا ما ترعرع القلب وجد عنده من الشعور والرغبة الكامنة ما توجه ميوله وتقيم سلوكه.

وتعود فطرة القلب، هي وتد الإرادة الحاسمة في الإنسان، هي الطريق الأول، والرغبة الأولى، والاختيار الأول في شتى الأمور، فإن عزّم القلب، ساق الجسد بأكمله وجوارحه إلى نيل ما يريد، وإن كره، ساق الجوارح للبعد مما يكره.. إذن فهو الأمر والنهاي لدى الإنسان، هو المعلم الفطري، والمرشد الرباني، و الجسر الوحيد بين الجسد والروح والسماء..

وكما أن السماء خافية الملامح إلا من النجوم، والصحراء مضللة الطرق إلا بالدليل، والأرض ضبابية المسالك إلا بالبوصلة، فإن الإنسان تائه بأفعاله وحدها دون ضوابط وطريق واضح، يخوض المجهول إلى المجهول، لا يلبث أن يرى طريقه بوضوح حتى تتشقق حوله العديد من الطرق، وما يلبث أن يختار إحداها عن اقتناع ورضا داخلي حتى يخيب مسعاه وينجذب إلى طريق آخر.. لا ينظم نبرات حياته وسبلها وما فعل وما يجب أن يفعل إلا قائد، ألا وهو القلب.

حري بهذا القلب أن يكون التعامل على أساسه، والمشورة الداخلية بحضوره، وتدخل الضمير بإشرافه، فلا يكون التعامل على أساس الناس إذ هم أسهل ما يكون بعد عنهم، والاختلاء بالنفس بعيداً عن مشاكلهم وريائهم وطرقهم المتعرجة، فمن بعد عن الناس والاختلاء بالنفس والقلب لتقويمها عبادة.. ومن بعد عن الناس والاختلاء بالنفس وحدها فهو قد يؤدي إلى الموبقات.

إن التعامل على أساس القلب هو تعامل الصديقين الكرام، الذين يعيشون في هذه الدنيا ب أجسادهم، وأرواحهم معلقة بالسماء، السائرون في النور الرباني، والهداية الإلهية، والحفظ الملائكي.

هم من أسسوا علم التعاملات القلبية وسط علوم التعاملات الذاخرة في الحياة، وكان ذلك هو المنهاج الأصح، والطريق الأكثر تمهيداً نحو الوصول إلى آخر الدنيا بسلام.

أتحدث هنا بوضوح عن اتباع القلب، فهو القائد الوحيد الذي يستقبل ردوداً على أفعاله من الصواب مباشرة، فبذكر الله يستقبل اطمئناناً، وبمعصيته يستقبل هماً وحزناً، يقول تعالى "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون".

إن الذي يعيش حيث يكون قلبه، هو من إذا شعر بالحرام في قلبه امتنع عنه، وصرف عنهسائر اهتمامه العقلي والروحي، وانزع نفسه منه حتى وإن كان في هذا الأمر ما يحبه وما يصادف هو في صدره، ينخلع منه مهما سمع من نداءات متطايرة، وكلام يتبعثر بين الألسنة، إذ يؤمن نفسه ويحميها، ويستخلص روحه من بئر الشبهات، ويبعد نفسه عن المتأهات المظلمة، أو الطرق المزيفة الخالبة، ليبقى في الطريق صامداً على منهاج قلبه وربه.

هو من إذا شعر بالحلال في قلبه، فرح، وأقبل على فعله بعدما يتأكد من صدق ما في قلبه من العلم والشريعة، حتى ينحضر حبات الغبار التي تعكر صفوه إلى السعادة، ويزيل الوسوسات القابعة في الطريق نحو الفرح، فما أجمل حلال الدنيا إذ اكتفى به قلبه عن حرامها، وما أجمل لذة العبادة إذ اقتناعها لقلبه ووسط ملذات الدنيا الزائفة.

قلبه قائد، قائد يتلقى أوامره من الخالق مباشرة، ما أجمل الطريق إن كان المرء على وصال مباشر برب الأكونان ومبسبب الأسباب، وعلى انقياد تام إلى قلب خال من الشبهات متيقن من طريقه، ثابت على الحق، لا يخيب رجاء من يتبعه، ولا يضل من يهتدى به إذ هو يهتدى برب السماء.

ال المسلم قلبه قائد، لذا فتقلب القلب لهو كارثة عظمى، وانهيار كبير، وخيانته في منتصف الطريق، لذلك كان يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك"، فمن للجيش إذا تغيرت عقيدة قائد في الميدان، ومن للروح والجسد إذا تقلبت موازين قائدها بينما تمضي الحياة!

إن العصمة من المعاصي هي صفات الأنبياء وحدهم، لذلك مهما بلغ العبد من الإيمان والربانية، تجده فاقداً لشيء، إذ أن طريق الربانية في الأصل هو تكامل ما بين سلوك المرء والتوبة والإبادة و تراه بعيداً حينما تشرق الشمس، تائباً إذ هي غربت، باكياً إذ دق الفجر أبواب السماء، وتوجهت النجوم في أفلاتها، وتعالت أصوات المآذن تقطعها شقشقة الطيور.

وقد ينتظم على الاستقامة بضعة أيام ثم يعصي، تراه يوماً مشرقاً تائباً، ويوماً خائب الرجاء ضعيفاً. هنا يسطع دور القلب كقائد ومربي وموجه، وتبزر قيمته العالية، فترى الذي هو قلبه قائد يخجل من نفسه سريعاً، يستحرق عمله ومعصيته، يتدخل قلبه في إزاحة قدمه ووضعها على طريق التوبة سريعاً بشكل غاية في الدقة والإنسانية.

أما الذي فيي بعد عن قلبه، فيرى نفسه تائماً المعالم، يبحث في كل مكان عما يثبت إيمانه مع ربه، يدور في سمائه وأرضه وأكوناته، يفترش الحزن، ورغم ذلك لن يستوي له الطريق، ولن تضاء في وجهه عيون المصابيح الناعسة من جديد، فقد باء بفقدان الأمل الوحيد ألا هو القلب الموصى إلى الله.. فالثبات مع الله في حالة إيمانية والسعى لزيادته والصمود في طريق الحق يلزم أن يكون المرء يعامل الله قليلاً.

إن العمل الظاهر للإنسان، لهو عبارة عن صورة لعمل القلب، لذا ترى ذوي القلوب النظيفة أعمالهم خالصة مخلصة يشهد لها بالتقى والصواب، وذوي القلوب العفنة التي تمكن الران من ثناياها تنضح على الجوارح بكل ما هو خبيث، فالأصل هو عمل القلب، وما يصدر منه تجاه الجوارح، لذلك وجب تقوية القلب وتدعيمه حتى يقدر على إدارة الذات إدارة كاملة مسيطرة، وقيادتها نحو الجنة في موكب من الصعوبات والفتنة.

فكان العلماء - في مسألة تدعيم القلب - لا فقط ينصحون بالأعمال الكبيرة، الظاهرة، بل يؤكدون على الأعمال الخفية، بين العبد والمعبد، يكتبون عن دموع الخشية من الله كيف وأنها أثمن من اللآلئ والدرر، والصدقة الخفية الخالصة لله، والدعاء في جوف الليل، وكأن الدنيا بما فيها من ازدحام للخالق، أجمل ما تحويه هو الانفراد بالمعبد عز وجل.

من صلح قلبه، تغير حاله، وتفتحت أبواب سمائه، وفاض النور في دنياه، واقتربت الجنة من أشواقه، وتواتت أنفاسه ذكرها

لله، وتخليص من الشبهات والشهوات، ها قد سمي إلى الملائكة، وانتزع نفسه من غيابه القاع البعيد ، يصبح ربانيا لأن المضفة الرئيسية في جسده قد أصبحت ربانية، تعامله مع الله، يراقب الله، ويعلم أنه يراه.. ويعيده كأنه يراه.. قلب نابض حي، يقلب كيان الإنسان إلى نعيم سرمدي، وصلاح أبدى، ورضا تام، ومستوى راقى من الإيمان.. يذوب في الأعمال الصالحة، لا يمل ولا يكل، فقلبه القوي يتلذذ بالصالحات، ولا يتعب مما يحبه ويشتهيه، تحول قلبه إلى قائد وميزان، يصوب له الطريق، ويصف له الصواب، ويفرق بين النور والظلم..

المسلم

المصادر: